مجلة الرائد

العدد : ١٨٣ الموافق في جمادى الأولى ١٤١٧ هجري ١٠ / ١٩٩٦ ميلادي

عنوان المقال : هل أنت شـــمـــولي	بقلم : صلاح الدين النكدلي

يحلو لعدد من العاملين في الحقل الإسلامي أن يتحدثوا عن معاني « الشمولية » في أهدافهم وشعاراتهم... وينتقدون بشدة من يميل إلى رفع شعار أو هدف « جزئي » ويتهمونه بالجهل ونتائجه (المحدودية ، البدعة...) أو بالخوف من حمل تبعات العمل الشمولي... ويؤكدون أن سعي الجزئيين لن يكتب له النجاح ، وأنه قد يكون – من حيث لا يريد هؤلاء – أداة تشويه فكري ومحاصرة ميدانية.

ولكن حين ننظر إلى واقع هؤلاء « الشموليين » فإننا نجد أنهم قد اهتموا – عملياً – بجانب من الواجبات شغل أوقاتهم وجندوا له طاقاتهم. والغريب العجيب أن هؤلاء يرفضون أن يوصفوا بجزئية الاهتمام ، وربما ذكروا أمثلة معزولة – يتيمة – للتدليل على أنهم شموليون فهماً وممارسة !!.

وتوضيحاً للكلام السابق أضرب أمثلة تقرب ما أرمي إلى بيانه :

١-في صفوف الحركة الإسلامية تيار يؤكد على مسألة إصلاح العقيدة ، ويصر هؤلاء على أن معنى « العقيدة » يشمل ضلالات قديمة وجديدة. ولكن واقع معظم المنتمين إلى هذا التيار يدل على أنهم يهتمون بالانحرافات والبدع القديمة ، ولا يعيرون الانحرافات الفكرية والسلوكية المعاصرة كبير اهتمام. وقد نرى بعض رموزهم العلمية تسير في ركاب أنظمة ترفع شعار الإسلام والتعاطف معه... وتقود العباد والبلاد في طريق الانسلاخ من الهوية الإسلامية... ومع ذلك فإن أولئك العلماء يسكتون ، بينما نراهم يثورون ويسودون الصفحات في الرد على أفراد يتبنون فهماً مرجوحاً ، وقد ينالون من صدق إيمانهم !. فأين شمولية العلم... وشمولية الفهم... وشمولية الممارسة ؟!.

٢-وفي العاملين تيار ينادي بالشمولية ، ولكنه اهتم - عملياً - بمقارعة التعريب... ممثلاً بأنظمة الحكم والتيارات العلمانية. ولا يهتم معظم هؤلاء بأمور تسمى « الإيمان » والشعائر التعبدية ولا يشعرون بخطورتها ، بل إن فيهم من تأثر بمسائل مرجوحة أو مردودة... فهو يدعو إلى إنقاذ الآخرين وهو نفسه في خطر !! فأين الشمولية المزعومة ؟!.

٣-وهناك تيار ركز على التربية في جزء من جهوده ، ودخل المعترك السياسي أيضاً ، فظن أنه شمولي فكراً وعملاً. وبتوسيع النظر نلمس أنه يمارس « الجزئية » في الاهتمام والممارسة ، وإن كان من الناحية الفكرية شمولياً !!.

النتيجة : لقد طرحت هذا الموضوع بهذه الصورة المبسطة رغبة في توضيح عدد من المسائل الضرورية :

أولاً : لا ريب في أن النظرة الشمولية إلى الإسلام تهبنا بصيرة تساعدنا على إنزال كل مسألة المنزلة التي أرادها الله عز وجل علماً - عقيدة - وعملاً. وهذا الموضوع ينبغي أن يكون محط اهتمام كل مسلم... لأن الخلل قد يكون باباً من الانحراف المهلك. { **قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين** }.

ثانياً : ولكن تقرير النظرة الشمولية شيء... وحملها إلى التطبيق شيء آخر. ونظرةٌ متجردة إلى الجماعات والتيارات الإسلامية تؤكد أن كل جماعة قد تبنت - نتيجة ظروف علمية وبيئية وسياسية - مقدمات ألزمتها بمنهج في الفهم وبطريقة التعامل مع الواقع.

ولكي تعرف كل جماعة مجال تخصصها في الجهد والاهتمام... فإن عليها أن تنظر إلى تصنيف الناس لها... وإلى ما تقوم به من أعمال وما تلزم به نفسها من قواعد وضوابط.

وهذه الحقيقة « التخصص في الاهتمام والجهد » تفرض على العقلاء التلطف في النقد... لأن ما تأخذه كل جماعة على غيرها في مجالي العلم والعمل تمارسه هي نفسها عملياً.

ثالثاً : إن هناك فرقاً بين « المؤسسات الثقافية الفكرية » وبين « المؤسسات الحركية » فالمؤسسة الفكرية مهمتها الأساسية البيان والتأصيل والتنظير... بينما دور الجماعات الإسلامية « المؤسسات الحركية » حمل جهود العلماء والمفكرين إلى الناس وتربيتهم عليه. وهذا ما تفعله الجماعات مع رجال الفكر والعلم حتى وإن كانوا لا يشكلون مؤسسة جماعية.

وإذا نظرنا إلى جماعات الدعوة ، أي المؤسسات الحركية ، في عصرنا... فإننا لا نعثر على جماعة تمكنت من جعل الجماعة بكاملها مؤسسة فكرية... لأن الاجتهاد الفكري - كغيره من ألوان الاجتهاد البشري - لا يجيده إلا قلة من الناس... فما كل من رفع لواء الوعي الفكري كان مفكراً. نعم قد يكون في صف جماعة ما أفراد عندهم نبوغ في مسائل فكرية... فهؤلاء فيما يجيدونه قوة في بصيرة الجماعة إذا أحسنت الاستفادة مما عندهم...

رابعاً : وبما أن الإنسان يتفاعل مع ما يصل إلى سمعه ، وما يقع تحت بصره وما يكتنف حياته من مؤثرات يتجاوب معها... فإنه عرضة للاستغراق في هموم وقضايا قد تخرجه عن النظرة الشمولية أو الممارسة الشمولية أو كلتيهما معاً... فإذا كان هذا الإنسان رأساً في جماعة فإن تقلبات الظروف وتأثيرات المعرفة تحمل معه الجماعة أيضاً إلى اللون الفكري والسياسي والتربوي الذي تأثر به.

خامساً : إن شمولية العلم هي الأصل ، وهذه يمكن تحصيلها ، أما شمولية العمل... فإن الأفراد والجماعات غير قادرين على تحقيقها... لأن هذا مهمة الأمة... وحتى التكاليف الشرعية فإنها لا تجب على الأفراد إلا إذا توفرت شروط وجوبها والقدرة على القيام بها...

ولا يحط من قيمة جماعةٍ إحسان ما تحسنه من عمل ، ولا يصح أن يؤخذ على جماعة تركيزها على مسائل معينة ما دامت تتوفر لديها الشمولية العلمية ، وينبغي أن نعترف بالتخصص الجهدي وأن نمهد لشيوع فكرة تكامل العاملين.